

من مشاهير الشرق

٤ - طائفة البهرا في الهند

مهرمظلات في المجتمع البهري

بقلم محمد نزيه

تمت

يقول الكهل الوقور محمد علي بخش رئيس الوزارة البهرية في وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحميد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فإذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلها ، فلاذ بكمرسى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل هم منها ، فقد انجرف عن تقاليد الطائفة ، وعن ديانتها ، وربما في أمنع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هي جماعة أقامت مذ وضمت في كف الحياة كنفها ، ألا تعرف خفض السبودية ولا يعرفها رق هذا الزمان ، وإنهما ليقنجان كل شيء إلا هذه الأمة التي أجمت على ألا يكون الوطن للقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يمز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استغنوا عن الوطن للقدس بالهدم المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أباصغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغيرهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبداً . وإذا كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرق بينه وبين سواه ، فإن أجلى معارف البهري ابتعاده عن مخالطة أي امرئ

وقال بصوت لا يشي بما عسى أن يكون مطوبياً تحت سلووه
« لا تيك باصاحي ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولا حيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفنه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم - سبي يهودي »
وعاد إلى حجره ، وخيله وحميره ، فلم يقب عنها بمد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

ابراهيم عبد القادر المازني

وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء في عينيه وأن يسمعهم يتلاغظون بما لا يفهم ، ثم يمضون عنه ويبق « و على حجره وجاء يوم نظرفيه الناس فاذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعتة تلتقي إلى صبيان يشدونها إلى مسامير في الحائط ، ويتامون ويتركون الحير ترائس

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف في مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه - إلى أرنبة أنفه - الضادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألكاً أو خجراً ، ولا يدع شكه بطلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من العسير أن يعرف أحد في أي شيء يفكر هذا الرائد المصوب الرأس . ولده - لطول صمته على خلاف عاده - كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التي سيرتها حين يفتح عينيه عليها ويصرها لأول مرة ؛ ولده كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحده وهو يغير له الضادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت الملاة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه - زملاءه - في صباح يوم ، وحل الأربطة بمنابة وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل في الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أرى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع - وعلى فمه ابتسامته التي لا تزياله - « صبراً ، صبراً » ، فصر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فصر النور الحجرية وملائها الشمس ورفقت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حافون به ، منحنون إليه ، يحدقون في وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم في حلقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التي تطل على النيل ؛ ثم تحركت يده ، وارتفعت كفه إلى عيائه ، وجعلت أصابعه المرتمشة تتحسس عينيه ، فأدرك القوم أن الطب أنفق ، وتوجع الطبيب الألماني وأرفض دمه ، ففطى وجهه يكفيه ليجبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، وتحمس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الملثمة فلمست لحيته البلهة ، فتلقها إلى كتفه

من غير طائفته ؛ ومُعظم بواطنه الحب والموودة والأهبة الداعية لماونة أخيه في مذهبه ، دون تفریق بمختلف الأجناس والمراتب ، قاستفتوا بقوادم عن كل حاجة إلى سوامم ، حتى (الحكومة) يمزفون عن أعمالها ، ترفعاً بأنفسهم عن شعور الحاجة إليها يوماً من الأيام

يقدم البهرى من أقاصى إفريقيا على بمبي ، فينزل من قلوب أبناء الطائفة هناك ، منزلة من عاد إلى أمه وأبيه من سفر طويل ، كل بيت من بيوتهم هو ملك يمينه حتى تفر نفسه وتذهب وحشته ، فينفج بما محتاج التجارة إليه من مال ، يبدأ به عمله ، فاذا لمح وجه الفشل ، أسرع فوضع أمره بين يدي طائفته ، فلا يكاد ذلك يضح لهم ، حتى ينهالوا على بضاعته ابتغاءً ، إلى أن تروج سوقه ، وتبدو طلائع نجاحه ، فان تجده مهما تقبت عنه ، ذلك البهرى الذى لم يبق الله عليه نعمة السعة واليسار

وإذ كانت شؤون هذه الأمة الواحدة في حاجة إلى الراى ، يصرفها ويسهر على تديرها ، فلا بد لها من قاض يفرق بالعدل بين أبنائها جميعاً فيرضيهم جميعاً ، وهذا القاضى هو داعى الدعوة في بمبي ، وهو نائبه في كل بلد اتخذها بعض هذه الطائفة منزلاً ، يخزلونه أمرهم فيقتضى بينهم بما شاء ، لا يرد له حكم ولا راجع في أمر ؛ ملك لا يملك من أسباب السلطان إلا عدل القاضى ، فكيف يبرم عدله ولا ينال للظلم من ظالمه ، وإنما يحكم بالعدل ويأمر ضمير الظالم أن يجزى صاحبه وأن يردعه ، بل لعل الظالم لا يشكو ، وإنما ظالمهم هو الذى يشكو أن ضميره يجزه ويشد عليه مذ ظلم ، فيادى القوم الكفى عذاب الضمير فانه ليوشك أن يكون كاللوت لا يُعْتَبَرُ . . . هذا قاض أمره هجيب ، وقضاؤه أعجب ، أترأه يعضى على شرعة مدونة ؟ أترأه يستلهم قانوناً يمينه ما له عنه من عييد ؟ كلا ، وإنما يستلهم قوة روحه ، وقد استميدت من معالم الشيعة وأعلام كتبهم

يعدل اللماى بقوة الروح ، ومن مظاهرها أنها تسترق الناس حولها ، مرتبين لا مرتبين ، بدافع الحب ، ومظهر الحب الخضوع ، يسمو حتى يصير تفانياً . تنجى القلوب إلى الداعى ، لأنه عظيم من عظمة الله عظمته ؛ ثم تتلقى القلوب به ، لأنه مقدس من قدسية الله قدسيته ، ثم تقبل ظله قبول الرضا ، لأنه ولي المالك المتصرف - في رأياها - فاذا عدل ، تفانت فيه ، فاذا أحب فنت في روحه ، وذلك داعى الدعوة عند طائفة البهرا

هو فرد ولكنه الجماعة كلها ، وم جماعة ولكنهم فرد واحد يقل ويقل حتى تتسع له سويله قلب واحد كبير ، هو قلب هذا الرجل ، يمدب عليهم وما يمدب إلا على نفسه ، ويمدبون عليه فهم على أنفسهم يمدبون . ولقد علت أن الحب شريعتهم ، قاعلم أن أول أحكام هذه الشريعة أن ما يجوز كل بهرى هو للشيخ قبل أن يكون لصاحبه ، يتصرف فيه متى شاء أينما شاء كيفما شاء ، وما جار . أليس رب الدعوة إلى التعاون والتساند والتضاد وهي التى أثمرت كل ما أوتيت الطائفة من مال أو أكثره ؟ - نم فلکم أغنت هذه المبادئ عائلاً ، وأغزت بيتياً ، وروت سادياً ! وهل يكون ساقى البندرة إلا رب نمارها . . . وقيم ينفق الأمين المادل المحب ماله إلا على الأمانة والعدل والحب ؟ إنه ليأخذها صاعاً فيردها بأمانته وعدله ووجه عشرة

على أن الشيخ لا يهينش طعمه إلا إذا كان من كد يمينه ؛ ولهذا يشتدل بالتجارة ، ولأمر آخر هو القدوة ، ويربى تجارته كأى من أبناء طائفته ، ولا ينسى حادث ذلك الشيخ الذى عاش في المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكان لا يتقطع عن العبادة في ليله أو نهاره ، إلا ربما يتأهب لرجع ما انقطع ، وإنه لراقد بالدرء لا يمدل لذيئه همأ ، وإن حمل لآخرته هموماً ، يخف الناس إلى تزويده بالطعام سراعاً وهم يبطونه على تزوده للآخرة ، حتى مر النبي به في بعض غدواته ، فدنا ممن أحاطوا به ، وسألهم ما خطبهم حتى تكأوا على هذا الشيخ ، قالوا : رجل صالح يارسل الله ، نهاره وليله صيام وقيام ، فمدب النبي عليه الصلاة والسلام ! وأسرع يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟ من يقوم بطعامه ؟ رسول الله يسأل ؟ فيا نغزنا عند رسول الله إن كنا نطعم الشيخ الصالح ، وبنا حفظنا من رضا رسول الله إن علم أننا نؤثره على أنفسنا بالطعام . . . لم يكذ النبي يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟ حتى تسابقت أصوات كثيرة تقول ، أرجو ثواب الله . . . كلنا نطعمه يارسل الله ، وأحاطت أبصارهم بوجه النبي ترصد ابتسامة الرضا ، فاذا بالوجه الشرق الكريم يعبس ، ويضطرب ، ثم تجتمع في غضبته حكمة الأبد من قوله : (كلکم خير منه) . داعى الدعوة الشيخ السن لا ينسى هذا الحديث ، وإن قومه ليقدمونه ، وتطيب نفوسهم له بكل ما يملكون ، ويبلغ من تقديسهم شخصه أن يستكبروا على الأرض أن تدحا قدماه ، فيحملونه إذا أراد الانتقال من حجرة من قعره إلى

النهضة التركية الأخيرة

والموسيقى الشرقية

بقلم عبد الحميد رفعت شيحة

قرأت بشغف عظيم ما خطه يراع الأستاذ القدير الدكتور عبد الوهاب عزام عن « النهضة التركية الأخيرة » وما تناوله من بحث وقد أبرز الإصلاحات الكالية بقلم تزيه غخلص يظهر منه بجلاء الأسف الشديد الذي يشاركه فيه كل شرقي يمتاز بشرقيته على ما قام به الترك من قطع كل ما يصلهم بالشرق ، ومجنبتهم كل ما يدنيهم منه كما يتجنب السليم الأجرى...! معتقدين أنهم بذلك يضمنون عطف الغرب عليهم ، في حين أنهم لن ينالوا إلا سخرية تلك الأمم التي تقدر الشخصية والجنس

ولما لم يشر حضرة الأستاذ الدكتور إلى حملة الكاليين على الموسيقى الشرقية رأيت أن أتناول هذه الناحية بهذه الكلمة : للموسيقى الشرقية تاريخ مجيد لم يبق خائفاً على أحد - إلا أنه من الإنصاف أن نعترف بفضل الأتراك وخدمتهم لها . فالتنازل نقد نقرأ فقط ما استحدثوه من علوم وفنون فيها ، ومن اشتهر بينهم من أعلام الموسيقى ، بل حفظوا لنا تراثهم الفني بتدوينهم لها بعد استعمالهم « النوتة الغربية »

وهم وإن كانوا إلى وقت قريب يستعملون التدوين للموسيقى على أخطاء كثيرة ، إلا أنهم على كل حال قد صاوتوا تروية فنية عظيمة بحق لنا أن نفخر بها أمام الموسيقى الغربية

هذب الأتراك الموسيقى الشرقية وأحدثوا بها فتوناً لم يكن للشرق عهد بها ، وتبحروا في علم الأنغام ووضعوا لكل نغم شروطاً دقيقة تميزه وتظهر شخصيته بجلاء ، ولهم في هذا

وثانيتها أن التجارة أشرف حرفة وأعف حرفة ، وأكفل حرفة بالنعمة واليسار ، وأيسر حرفة مع الفضيلة ، فإذا أهينا برجل الدين ، وإنه لأعظم الناس خطراً أن يعول عليها ، ويلتمس شرفها ، فأخاف بكل رجل أن يُحمَلْها أمينيته من الثنى : غنى النفس وفي أعقابها غنى المال ما

محمد شيبه

القاهرة

أخرى ، وهو على رغم ذلك كله حريص على أن يفتدوا إلى متجره كل يوم ، فيقضى بعض نهاره عاملاً لديناه ، كأنه على شيخوخته وضعفه ، يمشي أبداً

إن الدين لله ، فما يحفظ رجل الدين عليه حرمة ، إذا وزن الدعوة إليه بالدرهم والدينار ، إنما يسمو رجل الدين ، ويخلص روحه ، وتصل نفسه فلا تمسها شائبة من أكدار الدنيا ، إن يلتبس على جهده مشوبة الله وحده ، مزدرباً للوظيفة تجرى عليه فتذكره كلما أوشك أن ينسى ، بأن دعوته رهن بوظيفته ، ووظيفته رهن بدعوته فهل نوجب على رجل الدين أن يكون زاهداً ؟ كلاب بل يزيد مع ذلك مكفول الرزق موفوره ، بادي النعمة واليسار ، عال الكف يعطى ويتعفف أن يأخذ ، وكيف السبيل ؟

سبيل واحد يسلكه داعي الدعوة البهري ، وعماله في مختلف البلاد ، وقد سلكه من قبله أشرف البشر وسيد ساداتهم محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ كان تاجراً ؛ وفي التجارة وهي أم (المعاملات) ، ألوان من الخير والأمانة والصدق والاستقامة والتقناعة واللباب ، ومن كل فضيلة في الأرض ، وهي التي توجب (بالأمين) اسم محمد ، و (بالصادق) أمانة محمد ، فكانا شافيه لذي الله في اختياره ، ولذي الخلق في دعوته

وفي هامش هذا الحديث فلندكر ، أن داعي دعاة البهرا ، أراد في العام الماضي ، وكنت حينئذ في عبي ، أن يجمع إلى كربلاء موطن قبر الحسين ، ومفيض نفسه ودمه ، وإذا سار الشيخ كانت الطائفة كلها تسير ، فلا بد من مظاهر العظمة ومطالع الجلال ، وأسباب التحدث بنعمة الله ، وفي سبيل ذلك أكثرى الشيخ باخرة من عظام البواخر ، عبرت به إلى البصرة في ستائة بهري ، وما فتى مذ وطئت قدماء أرض العراق يمشجد الناس من عطايه ، بأكرم ما يتسع له كرم ، وأكمل ما يفيض به جاه . . . فن أين ؟ من تجارة الشيخ وكديمينه

فليته هذا الحديث الذي لا يفرغ منه ، بأمرين ، أولهما أن التعاون والمحبة هما روح الجماعة الصالحة المفلحة ، وعلى قدر القلة في عدد الجماعة تكون قوة هذه الروح ، فكان أجدادنا لم يخطثوا حين اتخذوا نظام القبيلة ، وكاننا أحفادهم ، لم تقدم خطوة واحدة حين خلقنا نظامها